سُورَةُ النُّورِ

مدنية وهي أربع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ①﴾.

﴿سُورَةٌ﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن، من جوامع سور القرآن ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ أي أوحينا بها إليك يا محمد في هذا الكتاب العزيز ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً، وإنما قال ذلك، لأن أكثر ما في هذه السورة، من باب الأحكام والحدود ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا﴾ في تضاعيف السورة ﴿آيَاتٍ﴾ التي نيطت بها الأحكام المذكورة ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على أحكامها، وتكرير الإنزال لإبراز كمال العناية بشأنها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون فتعملون بموجبها عند وقوع الحوادث.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ②﴾.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ شروع في تفصيل ما ذكر من الآيات البينات، الزانية

obeikandl.com

هي المرأة المطاوعةُ للزنا، لا المزنية بها كرهاً، وتقديمها على الزاني لأنها الأصل في الفعل، بكون الداعية فيها أوفر، ولولا تمكينها منه لم يقع[١] ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ بيان لذلك الحكم، وكان هذا عاماً في حق المحصن وغيره، وقد نسخ في حق المحصن قطعاً، لأنه ﷺ رجم ماعزاً وغيره، فيكون من باب نسخ الكتاب بالسنة، وروي عن علي رضي الله عنه قال: «جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ» والجَلْدُ ضربُ الجِلْد بالسوط ونحوه، وفيه إشارة إلى أنه لا يُبالغ فيه، والخطاب للأئمة، لأن إقامة الحد من الدين، وهو على الكل، إلاَّ أنهم لا يمكنهم الاجتماع فينوب الإمام منابهم، أو من يوكّله ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي رحمة ورقَّة في طاعته، وإقامة حدِّه، فتعطّلوه أو تسامحوا فيه، وقد قال ﷺ: «لو أن فاطمة بنت رسول الله سرقتْ لقطعتُ يَدَها»[٢] ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ من باب التهييج، فإن الإيمان يقتضي الجد، في طاعته تعالى، وذِكْرُ اليوم الآخر لتذكير ما فيه من العقاب، في مقابلة المسامحة ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا﴾ أي لتحضره زيادةً في التنكيل، فإن التَّفضيح قد ينكِّل أكثر مما ينكِّل التعذيب ﴿طَآئِفَةٞ﴾ المراد به جمع يحصل به التشهير ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أقلها ثلاثة، وتسميته عذاباً دليل على أنه عقوبة.

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾.

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾[٣] هذا

(١) فإن قيل: لم قُدِّمت المرأة في حدّ الزنا، وأُخّرت في السرقة ﴿والسارقُ والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾؟ فالجواب أن الزنى بدافع الشهوة وهي في المرأة أقوى، والسرقة من الجرأة والقوة وهي في الرجل أقوى.

(٢) هذا طرف من حديث شهير رواه البخاري.

(٣) إنما قدَّم الرجل هنا ﴿الزاني لا ينكح﴾ لأن هذه الآية في حكم النكاح، والرجل هو =

حكمٌ مؤسسٌ على غالب المعتاد، جيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزانيات، بعد زجرهم عن الزنا بهنَّ، وقد رَغِب بعضُ ضَعفَة وفقراء المهاجرين، في نكاح الموسرات من بغايا المشركين، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك، فنُفِّروا عنه، ببيان أنه من أفعال الزناة، وخصائص المشركين، كأنه قيل: الزاني لا يرغبُ إلاَّ في نكاح الزانية، فلا تحوموا حوله، كي لا تنتظموا في سلكها، أو تتَّسموا بسماتها، فالآية في التزهيد في نكاح البغايا، وهو نظير قوله تعالى: ﴿الخبيثاتُ للخبيثين﴾ ورُوي أن «مِرْثَد الغَنَوي» كانت له صديقة في الجاهلية، يقال لها: «عَنَاق» فلما أتاها بمكة، دعته إلى نفسها، فقال مرثد: إن الله حرَّم الزنا، قالت فانكحني، فقال: أسأل رسول الله ﷺ، قال: فأتيتُ الرسول ﷺ فقلت يا رسول الله: أأنكح عَنَاقا؟ فأمسك رسول الله ﷺ فنزلت الآية؟ فدعاني فقرأها عليَّ وقال: «لا تَنْكِحْها»[1] وقال قومٌ: المراد من النكاح هو الجماع، وهذا قول الضحاك ورواية عن ابن عباس، وقال سعيد بن المسيب وجماعة: إن حكم الآية منسوخ بقوله تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم..﴾ ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ أي نكاح الزانيات ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لما فيه من التشبه بالفسقة، والتعرض للتهمة، والتسبب لسوء المقالة، والطعن في النسب، وغير ذلك من المفاسد، ما لا يكاد يليق بأحد من الأراذل، فضلاً عن المؤمنين، ولذلك عبَّر عن التنزيه بالتحريم مبالغةً[2].

= الأصل فيه، لأنه الراغب والطالب، فلذلك قُدِّم على الزانية، بخلاف الآية السابقة فإن فيها حكم الزانيين، والمرأة فيه هي الأصل، لأنه لولا رضاها لما حدثت الجريمة.

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٧٦ والنسائي ٦/٦٦ وأبو داود رقم ٢٠٥١ كلاهما في النكاح.

(٢) ليس في الآية ما يدل على تحريم نكاح الزاني أو الزانية، وإنما مقصد الآية تشنيع الزنى، وتبشيع أمره، بأنه لا يليق إلا بالأشرار الخبثاء، فالفاسق الخبيث الذي من =

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾ بيانٌ لحكم العفائف، إذا نُسبْنَ إلى الزنا، ويعتبر في الإحصان ههنا العفةُ عن الزنا، والحرية، والبلوغُ، والإسلامُ، وفي التعبير بالرمي، المنبىء عن صلابة الآلات، وإيلام المرمى إيذان بشدة تأثيره فيهن، وكونه رجماً بالغيب، وقد أجمع العلماء على أن المراد الرمي بالزنى، بأن يقول يا زانية، أو زنيت، أما التعريض كقوله: «أمَّا أنا فما زنيتُ وليست أمي زانية» فليس بقذف، وعدم التصريح للاكتفاء بإيرادهن عقيب الزواني، ووصفهن بالإحصان، كأنه قيل: والذين يرمون العفائف بالزنا ﴿ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ يشهدون عليهن بما رموهن به ﴿ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ ﴾ لظهور كذبهم وافترائهم بعجزهم عن الإتيان بالشهداء، وتخصيص رميهن بهذا الحكم، مع أن حكم رمي المحصنين كذلك، لشيوع الرمي فيهن، والتهمة لهن أشنع وأبشع ﴿ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً ﴾ أي وزيدوا في عقوبتهم بعدم قبول شهادتهم، هدراً لكرامتهم، والغرض منه الزجر، لأنه مؤلم للقلب، وقد آذى المقذوف، فعوقب بإهدار منافعه جزاءً وفاقاً ﴿ أَبَدٗاۚ ﴾ مدة حياتهم وإن تابوا وأصلحوا، لأنه تتمة الحد، كأنه قيل: فاجلدوهم، وردُّوا شهادتهم، فبقي كأصله ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله، لإتيانهم بالذنب الكبير، والجرم الشنيع، وهو مقرر لما قبله، ومبين لسوء حالهم عند الله عزَّ وجل.

= شأنه الخبث والزنى، لا يرغب في نكاح الفاضلات الصالحات من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة مثله، أو في مشركة نجسة، والفاسقة الخبيثة الزانية لا ترغب في نكاح الرجال الصلحاء الأفاضل، إنما ترغب في فاسق فاجر مثلها، وكما قيل: «إن الطيور على أشكالها تقع» وإذا زنى شاب ثم تاب وأراد الزواج بمن زنى بها ستراً عليها، فقد سئل عنها ابن عباس فقال: «أوله سفاح، وآخره نكاح، والحرام لا يحرِّم الحلال» فأفتى بجواز النكاح بالزانية، وبه أخذ الجمهور.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ استثناء من الفاسقين، كما ينبىء التعليل الآتي ﴿ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي من بعد ذلك الذنب العظيم ﴿ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾ أعمالهم التي من جملتها ما فرط منهم بالتلافي، ومنه الاستحلال من المقذوف ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فحينئذٍ لا يؤاخذهم الله بما فرط منهم، ولا ينظمهم في سلك الفاسقين، وقد علق الشافعي رحمه الله الاستثناء بالنهي، وجعل الأبد عبارة عن مدة القذف، فتنتهي بالتوبة، فتقبل شهادته.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ ﴾ أي يقذفون زوجاتهم بالزنا ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ ﴾ يشهدون بما رموهن به من الزنا ﴿ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ ﴾ جعلوا من جملة الشهداء، إيذاناً بعدم إلغاء قولهم بالمرة، وبذلك ازداد حسن إضافة الشهادة إليهم، في قوله تعالى: ﴿ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ ﴾ أي شهادة واحدٍ منهم ﴿ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فيما رماها به من الزنا.

﴿ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلْخَٰمِسَةُ ﴾ أي الشهادة الخامسة، التي هي في مقابلة التزكية للشهود، وفيها تحقيق الخبر، وإظهار الصدق من الكذب، والبتُّ في هذه القضية الخطيرة، بأن يقول في المرَّة الخامسة ﴿ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ فيما رماها به من الزنا، فإذا لاعن الزوج حُبست الزوجة، حتى تعترف أو تلاعن، والحكمة من هذا التشريع الخاص بالزوجين، أن الرجل إذا رأى من زوجته ما يريبه، أو رأى معها أجنبياً، فإن قتله عوقب، ولا

يمكنه الصبر، وطلب البيِّنة منه في مثل هذه الحالة متعذر، فلذلك شرع اللعان بين الزوجين، صيانة للعرض والشرف.

﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ ﴾.

﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾ أي العذاب الدنيوي وهو الرجم ﴿ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي تقول أربع مرات: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا.

﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ ﴾.

﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ ﴾ الزوج ﴿ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فيما رماني به من الزنا، وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها، لما أنها مادة الفجور، ولأن النساء يستعملن اللعن، فربما يجترئن على التفوّه به، لسقوط وقعه عن قلوبهن، بخلاف غضبه تعالى، وسبب نزول هذه الآية ما روي عن سهل بن سعد الساعدي، أن عويمر العجلاني جاء رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله أم كيف يفعل، فقال ﷺ: «قد أنزل الله تعالى فيك وفي صاحبتك قرآناً، فاذهبْ فأت بها، قال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله ﷺ»[(١)] والفرقة بائنة عند أبي حنيفة ومحمد، ولا تقع الفرقة حتى يفرِّق القاضي بينهما، وعند أبي يوسف وزفر والشافعي هي فرقةٌ بغير طلاق، توجب تحريماً مؤبّداً.

---

(١) أخرجه البخاري ٩/ ٣٢١ في الطلاق ومسلم رقم ١٤٩٢ في اللعان.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ .

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ متروك الجواب للتعظيم، أي لفضحكم، وعاجلكم بالعقوبة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أي مبالغ في قبول التوبة، حكيم في جميع أفعاله وأحكامه، التي من جملتها ما شرع لكم في موضوع اللعان، لأنه تعالى لو لم يشرع اللعان لهم، لوجب على الزوج حدُّ القذف، مع أن الظاهر صدقه، لأنه أعرف بحال زوجته، وأنه لا يفتري عليها لاشتراكهما في الفضيحة، وبعدما شرع لهم ذلك، لو جعل الله شهادته موجبة لحد الزنا عليها، لفات النظر لها، ولو جعل شهادتها موجبة لحد القذف عليه، لفات النظر له، ولا ريب في خروج الكل عن سنن الحكمة والرحمة، فجعل شهادات كل منهما، مع الجزم بكذب أحدهما، دارئة لما توجه إليه من العذاب الدنيوي، وفي ذلك من الحكم البالغة، وآثار الفضل والرحمة، ما لا يخفى، سبحانه ما أعظم شأنه، وأوسع رحمته، وأدقَّ حكمته!!.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ سبب نزولها ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً، أقرع بين أزواجه، فأيها خرج سهمها خرج بها، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأقرع بيننا في غزوة غزاها «غزوة بني المصطلق» فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، فكنت أُحمَل في هودج، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل، ودنونا من المدينة، آذن ليلةً فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيت من شأني، أقبلت إلى رحلي فلمست

صدري، فإذا عِقْد لي من جزع أظفار ـ نوع من الخرز وهو حجر اليماني ـ قد انقطع، فرجعت فالتمستُه. فحبسني ابتغاؤه، قالت وأقبل الرهط الذين كانوا يرحِّلون بي فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذْ ذاك خِفَافاً، وكنتُ جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدتُ عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب، فيمَّمتُ أي قصدتُ ـ منزلي، الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليَّ، فبينما أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيني فنمت، وكان «صفوان بن المعطّل السُّلمي» قد عَرَّس ـ التعريس نزول المسافر في آخر الليل ـ من وراء الجيش، فأدلج ـ والإدلاج سيرُ آخر الليل ـ فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل أن يضرب الحجابُ عليَّ، فاستيقظتُ باسترجاعه ـ أي بقوله: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون» ـ حين عرفني فخمّرتُ وجهي بجلبابي، والله ما كلَّمني كلمة ولا سمعتُ منه كلمةً غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها، فركبتُها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرِّسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني..»(1) الحديث. قوله تعالى: ﴿جَاؤُوا بِٱلإِفْكِ﴾ أي بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، والمراد ما قذفت به الصدّيقة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وفي لفظ المجيء، إشارة إلى أنهم أظهروا من عند أنفسهم، من غير أن يكون له أصل ﴿ عُصْبَةٌ ﴾ جماعة منهم «عبد الله بن أبيّ، وزيد بن رفاعة، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش» ومن ساعدهم ﴿مِّنكُمْ﴾ أي من جماعة المسلمين، وابن أُبيٍّ وإن كان رئيس المنافقين، فقد كان ينسب إلى الإيمان في الظاهر ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ﴾ خوطب به رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعائشة،

---

(1) أخرجه البخاري ١٩٨/٥ في الشهادات، وفي تفسير سورة النور، ومسلم في التوبة رقم ٢٧٧٠ باب حديث الإفك.

وصفوان، تسلية لهم، والضمير للإفك ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاكتسابكم به الثواب العظيم، وظهور كرامتكم على الله تعالى، بإنزال ثمان عشرة آية في نزاهة ساحتكم، وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم﴾ أي من أولئك العُصبة ﴿مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ بقدر ما خاض فيه ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾ أي معظمه ﴿مِنْهُمْ﴾ من العصبة وهو «ابن أُبيّ» رأس النفاق فإنه بدأ به وأذاعه بين الناس ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة، أو في الدنيا أيضاً فإنهم جُلدوا ورُدَّت شهادتُهم، وصار ابنُ أُبي مطروداً، ومشهوداً عليه بالنفاق، و«حسان» أُعمي وصار مشلول اليدين، ومسطح صار مكفوف البصر، وكانت هذه عقوبة دنيوية عاجلة.

﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢)﴾.

﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ تلوين للخطاب، وصرف له عن رسول الله ﷺ وذويه، إلى الخائضين بطريق الالتفات، لتشديد التوبيخ، أي هلاَّ حين سمعتم هذا الافتراء والبهتان، ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي ظنوا بإخوانهم المؤمنين الخير، ولم يسرعوا إلى التهمة، وبخاصة في أهل بيت النبوة، وفيه عتاب شديد، وزجر بليغ فإن وصف الإيمان يحملهم على إحسان الظن بالمؤمنين، فإخلالهم بموجب ذلك الوصف أقبح وأشنع، أي كان الواجب أن يظن المؤمنون والمؤمنات، أول ما سمعوه خيراً، فإن مقتضى الإيمان ألاَّ يصدّق مؤمنٌ على أخيه سوءاً، ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تردد ﴿وَقَالُوا﴾ في الحال ﴿هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر كونه إفكاً، كما يقول المتيقن المطلع على الحال. قال ابن الزبير: ذلك معاتبة للمؤمنين، إذ المؤمنُ لا يفجر بأمه، وعائشة رضي الله عنها أمُّ المؤمنين، فكيف بالصِّديقة بنت الصِدِّيق، أم المؤمنين، حَرَمُ رسول الله ﷺ؟ وروي أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه قالت له امرأته: أما

تسمعُ ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم، وذلك الكذب المكشوف، أكنتِ فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا واللهِ، فقال: «فعائشةُ واللهِ خيرٌ منك» يريد أنها بريئة وطاهرة مطهرة من الزور والبهتان.

﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ أي هلاَّ جاء الخائضون بأربعة شهداء، يشهدون على ما قالوا ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى الخائضين ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي في حكمه ﴿ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ الكاملون في الكذب، فإن ما لا حجة عليه كذب عند الله، ولذلك رتب الحدُّ عليه.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ خطاب للقذفة جميعاً ﴿ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ من فنون النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة ﴿ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ من ضروب الآلاء التي من جملتها العفو بعد التوبة ﴿ لَمَسَّكُمْ ﴾ عاجلاً ﴿ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك، والإبهامُ لتهويل أمره، والاستهجان بذكره، يقال: خاض في الحديث، وخاض فيه ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يستحقر دونه الجلد، لِعظَم جرمه.

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ ﴾ بحذف إحدى التائين، أي لمسكم ذلك العذاب العظيم

وقت تلقيكم إياه من المخترعين له ﴿بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ أي يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه، والتلقي، والتلقف، والتلقن، معان متقاربة، خلا أن في الأول معنى الاستقبال، وفي الثاني معنى الخطف، وفي الثالث معنى الحِذْق والمهارة ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ أي تقولون قولاً مختصاً بالأفواه، من غير أن يكون له مصداق، ومنشأ في القلوب، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا﴾ سهلاً، لا تبعة فيه ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ والحال أنه عنده عزَّ وجلَّ ﴿عَظِيمٞ﴾ لا يقادر قدره في الإثم واستحقاق العذاب، وفيه دلالة على أن لا يجوز الإخبار إلا مع العلم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[1] وإن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها، فهذه ثلاثة آثام في حادثة الإفك، عُلِّق بها مسُّ العذاب العظيم: ١ ـ تلقي الإفك بألسنتهم، ٢ ـ والتحدث به من غير تحقق، ٣ ـ واستصغارهم لذلك وهو عند الله عظيم.

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ من المخترعين أو المشيعين ﴿قُلۡتُم﴾ تكذيباً لهم ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ أي ما يمكننا ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ وما يصدر عنا ذلك بوجه من الوجوه، فإن قذف آحاد الناس محرَّم شرعاً، فضلاً عن التعرض للصِدِّيقة رضي الله عنها ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تعجبٌ ممن تفوَّه به، وتنزيه له تعالى عن أن تكون حَرَم نبيّه فاجرة ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ أي زورٌ يبهت من يسمع، لعظمته في المبهوت عليه، واستحالة صدقه.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي ينصحكم ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ أي يزجركم من أن تعودوا لمثله ﴿أَبَدًا﴾ أي مدة حياتكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان وازع عنه، وفيه تهييجٌ على الامتناع عن قذف المؤمنات.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِۚ﴾ الدالة على الشرائع، ومحاسن الآداب، لتتَّعظوا، وتتأدبوا بها، أي ينزلها كذلك، لا أنه يبينها بعد أن لم تكن كذلك ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع تدابيره وأفعاله، ولهذا شرع من العقوبة، ما يضمن الحفاظ على الأعراض.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ أي يريدون ويقصدون ﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ أي تنتشر الخصلة المفرطة في القبح، وهي الرمي بالزنا أو الزنا نفسه، فالمراد بشيوعها شيوع خبرها، ويتصدون مع ذلك لإشاعتها ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي يحبون الفاحشة في حق المؤمنين ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ما ذكر ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ من الحدِّ وغيره ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾ من عذاب النار ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ جميع الأمور، التي من جملتها ما في الضمائر ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما يعلمه تعالى.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب، للتنبيه على كمال عظم الجريمة، وجواب «لو» محذوف لدلالة ما قبله عليه، كأنه قال: لهلكتم أو لعذبكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لكنَّ الله رؤوف رحيم لا يعاجل بالعقوبة، وتغيير سبكه، وتصديره بحرف التحقيق

«أنَّ» لبيان اتصافه تعالى بالرأفة والرحمة على الدوام، لا بيان حدوثهما بهم في هذه الحالة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ولمَّا بيَّن الله سبحانه ما على أهل الإفك، شرع بتحذير المؤمنين فقال: ﴿ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ ﴾ أي لا تسلكوا مسالكه، في كل ما تأتون وما تذرون، من الأفاعيل التي من جملتها إشاعة الفاحشة بالمؤمنات ﴿ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ وضع موضع ضميرهما لزيادة التقرير ﴿ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ ﴾ أي فإن الشيطان يأمركم بكل قبيح، وبما تناهى بالفظاعة والشناعة[1] ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ ﴾ أي لولا فضله عليكم بالتوفيق للتوبة والإنابة، وشرع الحدود المكفِّرة للخطايا ﴿ مَا زَكَىٰ ﴾ أي ما طهر من دنسها ﴿ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا ﴾ أي أبد الدهر ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي ﴾ أي يطهِّر ﴿ مَن يَشَآءُۗ ﴾ من عباده بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه، وحمله على التوبة ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ مبالغ في سماع الأقوال ﴿ عَلِيمٞ ﴾ بجميع المعلومات، لا تخفى عليه خافية.

﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) سلَّط الله تعالى الشيطان على البشر للابتلاء، فلهم تأثيرات ظاهراً، قال الله تعالى: ﴿زيَّن لهمُ الشيطَانُ أعْمَالَهُمْ﴾ وباطناً قال الله تعالى: ﴿الذي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النَّاسِ﴾ فبرحمته تعالى لا يراهم البشر، لخبث صورتهم.

﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ أي لا يحلف، نزلت في شأن الصدّيق رضي الله عنه، حين حلف أن لا ينفق على «مِسْطح» بعد أن تكلم في عائشة، وكان ينفق عليه، لكونه ابن خالته، وكان من فقراء المهاجرين ﴿ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ أي في الدين، وكفى به دليلاً على فضل الصدِّيق وشرفه ﴿ وَٱلسَّعَةِ ﴾ في المال ﴿ أَن يُؤْتُوٓاْ ﴾ على أن لا يؤتوا ﴿ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ صفات لموصوف واحد، تنبيهاً على أن كلا منها علة مستقلة، لاستحقاق الإيتاء، أي أن لا يؤتوا أقاربهم من الفقراء والمهاجرين، شيئاً ممّا كانوا يعطونهم من المال والإحسان، لذنب فعلوه ﴿ وَلْيَعْفُواْ ﴾ ما فرط منهم ﴿ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾ بالإغضاء عنهم ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾؟ بمقابلة عفوكم، وصفحكم، وإحسانكم إلى من أساء إليكم ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة، مع كمال قدرته على المؤاخذة، فلما قرأها الرسول ﷺ على أبي بكر رضي الله عنه قال: بل أحبُّ أن يغفر الله لي، وردَّ لمسطحِ نفقته[1].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ أي العفائف بالفاحشة ﴿ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ﴾ عنها على الإطلاق، بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها، ولا من مقدماتها أصلاً، ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ﴿ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي المتصفات بالإيمان الحقيقي، مع طهارة القلب، والمراد بهن زوجات رسول الله ﷺ الطاهرات، للتغليظ الذي ورد من ذكر اللعن في حق من قذفهن، قال ابن عباس: «هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذ ليس له توبة، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة»[2]. ولا ريب في أن رمي غير أمهات

---

(١) انظر سبب النزول مفصلاً في كتابنا «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام».
(٢) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٣٠.

المؤمنين ليس بكفر، فيجب أن يكون المراد إياهنَّ، فإنهن قد خصصن من بين سائر المؤمنات، فجعل رميهنَّ كفراً، إبرازاً لكرامتهن، وحماية لحمى الرسالة، من أن يحوم حوله أحد بسوء، فمن أذنب ذنباً ثم تاب منه، قبلت توبته، إلاَّ من خاض في أمر عائشة رضي الله عنها، وهل هو إلا لتهويل أمر الإفك، والتنبيه على أنه كفر غليظ، ولهذا قال ﴿لُعِنُواْ﴾ أي بما قالوه في حقهن ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين، والملائكة أبداً ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ما ذكر من اللعن الأبدي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هائلٌ، لغاية عظم ما اقترفوه من الجناية، سئل سعيد بن جبير عمن قذف مؤمنة، هل يلعنه الله تعالى في الدنيا والآخرة، قال: ذاك لعائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ متصل بما قبله، أي في ذلك اليوم الرهيب ـ يوم القيامة ـ تشهد على الإنسان جوارحه وأعضاؤه ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فتنطق الألسنة، والأيدي، والأرجل، بما اقترفت من سيِّيء الأعمال، وقبيح الفعال، ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها، أنه تعالى ينطقها بقدرته، فتخبر كل جارحة منها ما صدر عنها، ففيه من ضروب التهويل، بالإجمال والتفصيل، ما لا مزيد عليه.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ أي يوم إذ تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة، يعطيهم الله جزاءهم الثابت العادل، وافياً كاملاً ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ عند معاينتهم الأهوال، حسبما نطق به القرآن الكريم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي العادل الثابت، الذي لا يظلم أحداً شيئاً، الظاهر عدله في تشريعه وحكمه ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ المظهر للأشياء كما هي في نفسها، ولو تتبعت ما في القرآن

المجيد من آيات الوعيد، لا تجد شيئاً منها فوق هذا التشديد، وما ذاك إلا لإظهار منزلة النبي ﷺ وإبراز رتبة الصديقة في النزاهة عما نُسب إليها.

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ من النساء ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الرجال، أي مختصات بهن ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ من الرجال ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ﴾ من النساء، لأن المجانسة من دواعي الانضمام ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ من النساء ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ منهم ﴿لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ منهن، وحيث كان ﷺ أطيب الأطيبين، تبيَّن كونُ الصدِّيقة رضي الله عنها من أطيب الطيبات بالضرورة، واتضح بطلانُ ما قيل في حقها، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ﴾ أي أولئك الموصوفون بعلوِّ الشأن، مُبَرَّؤون مما يقوله أهل الإفك في حقهم، وقيل معنى الآية: الخبيثاتُ من القول، للخبيثين من الرجال والنساء، أي لا ينبغي أن تقال في حق غيرهم، وكذا الخبيثون من الفريقين، أحقاء بأن تقال في حقهم خبائث القول، والطيبات من الكلم للطَّيِّبين من الفريقين فمآله تنزيه الصديقة أيضاً ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمة ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجنة، وإلى هنا تمت قصة أهل الإفك ثم بيَّن تعالى آداب دخول البيوت، فقال تقدست أسماؤه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا﴾ وبعد ما فصَّل الزواجر عن الزنا، وعن رمي العفائف، شرع في تفصيل الزواجر عمَّا يؤدي لأحدهما، من

مخالطة الرجال بالنساء، ودخولهم عليهن، وتعليمهم الآداب الجميلة، فقال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم﴾ أي لا تدخلوا على أحدٍ في مسكنه وبيته الذي يسكنه وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ خارج مخرج العادة، التي هي سكنى كل أحد في ملكه، وإلاّ فالمؤجّر والمعير أيضاً، منهيّان عن الدخول بغير إذن ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ أي تستأذنوا من أصحابها، من الاستئناس بمعنى الاستعلام، من آنس الشيء إذا أبصره، آنست شيئاً علمته وآنسته أبصرته ﴿وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ عند الاستئذان، بأن تقولوا السلام عليكم، أأدخل؟ فإن أذن له دخل وإلاّ رجع، لما روي عن أبي موسى الأشعري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يُؤذن له، فلْيرجع»[1] وروي عن كُرْز بن حنبل قال: دخلتُ على النبي ﷺ ولم أسلِّم ولم أستأذن، فقال ﷺ: «ارجع فقلْ السلامُ عليكم، أأدخل؟»[2] وروى عطاء بن يسار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أأستأذن على أمي؟ قال: «نعم» فقال الرجل: فإني خادمها، فقال ﷺ: «استأذن عليها، أتحبُّ أن تُرىٰ عُريانة»؟[3] ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي الاستئذان مع التسليم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أن تدخلوا بغتة، وخير من تحية الجاهلية، كقولهم حُيِّيتم صباحاً، أو مساءً ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تتذكروا وتتعظوا، وتعملوا بموجبه.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/٢٣ ومسلم رقم ٢١٥٣ في قصةٍ جرتْ لأبي موسى الأشعري مع عمر رضي الله عنهما، فطلب عمر منه البيّنة، وهدّده بالعقوبة إن لم يأت بها.

(٢) أخرجه أبوا داود رقم ٥١٧٧ في الأدب وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٢/٩٦٣ والطبري في تفسيره ١٨/١١٢.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا﴾ أي ممن يملك الإذن من أهل البيت، وعبارة النصّ هو النهيُ عن دخول البيوت الخالية، لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس إخفاءه، مع أن التصرف في ملك الغير محظور مطلقاً، وأمَّا حرمةُ دخول ما فيه النساء، والولدان، فثابت بدلالة النص، لأن الدخول حيث حُرم مع ما ذكر من العلة، فلأن يحرم عند انضمام ما هو أقوى ـ أعني الاطلاع على العورات ـ أولى ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ واصبروا ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ من جهة من يملك الإذن عند إتيانه ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ أي إن أُمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع فارجعوا، ولا تُلحُّوا بتكرير الاستئذان، وكلِّ ما يؤدي إلى الكراهة، من قرع الباب بعنف، والتصييح بصاحب الدار، وغير ذلك، فإنه مما يقدح في المروءة ﴿هُوَ﴾ أي الرجوع ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي أطهر وأنفع لدينكم ودنياكم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون، فيجازيكم عليه.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من اطَّلع في بيت قوم، بغير إذنهم، فقد حلَّ لهم أن يفقؤوا عينه»(١).

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟﴾ أي بغير استئذان ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أي غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة، بل ليتمتَّع بها من يضطر إليها، كالرباط، والخانات، والحوانيت، ونحوها، فإنها معدة لمصالح الناس كافة، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ أي فيها حق تمتع لكم،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الديات ١٢/٢٤٣ فتح الباري، ومسلم في الآداب رقم ٢١٥٨ وفي الحديث الشريف «كلُّ عينٍ باكيةٌ يوم القيامة، إلاَّ عينٌ غضَّت عن محارم الله، وعين سهرت في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله» أخرجه الترمذي.

كالاستظلال من الحرِّ والبرد، وإيواء الأمتعة، والبيع والشراء، والاغتسال، وغير ذلك مما يليق بحال البيوت، فلا بأس بدخولها بغير استئذان ممن يتولى أمرها ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل للفساد.

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ شروعٌ في بيان أحكام شاملة للمؤمنين، يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت اندراجاً أولياً، ومفعول الأمر أمرٌ آخر، وقد حذف تعويلاً على دلالة جوابه، أي قل لهم غضوا ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أي يصرفوا أبصارهم عمَّا يحرم النظر إليه، ويقتصروا على ما يحلُّ، وإنما خصَّ المؤمنين بذلك، لأن هذه الأحكام كالفروع للإسلام، والمؤمنون مأمورون بها ابتداء ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ إلاَّ على أزواجهم، أو ما ملكت أيمانهم، وتقييد الغضِّ «بمن» التبعيضية، دون الحفظ، لما في أمر النظر من السعة[1]، وقيل: المراد بالحفظ ههنا خاصة هو الستر ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من الغضِّ والحفظ ﴿أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ أي أطهر لهم من دنس الريبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء، فليكونوا على حذر منه، في كل ما يأتون وما يذرون، وفيه ترغيبٌ وترهيب، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[2] قال أبو العالية: كلُّ ما في القرآن من حفظ الفرج، فهو الحفظُ عن الزنا، إلاَّ ههنا فإنه تعالى أراد به الاستتار، حتى لا يقع بصرُ الإنسان عليه، روي عن أبي سعيد الخدري أن

(١) فإن قيل: ما فائدة قوله «منْ» في غضّ البصر، دون حفظ الفرج؟ فالجواب: فائدته أنَّ حكم النظر أخفُّ من حكم الفرج، إذ يحلُّ النظر إلى بعض أعضاء المحارم، ولا يحلُّ إلى شيء من فروجهن، فأمر الفروج أعظم وأخطر.

(٢) سورة غافر، آية: ١٩.

رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الرجلُ إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفضي الرجل إلى الرجل في ثوبٍ واحد، ولا تُفضي المرأةُ إلى المرأة في الثوب الواحد»(١). وعن جرير بن عبد الله قال: «سألتُ رسول الله ﷺ عن نَظَر الفَجْأَة، قال: اصرفْ بَصَرك»(٢) وعن بريرة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ لعلي: «لا تُتبعِ النظرةَ النظرةَ، فإن لك الأولى، وليست لك الثانية»(٣).

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحلُّ لهنَّ النظرُ إليه من الرجال، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة، إذْ أقبل ابنُ أمّ مكتوم، فقال ﷺ: احتجبا منه، فقلنا يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا؟ فقال: أفعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه؟»(٤)

---

(١) الحديث رواه مسلم رقم ٣٣٨ باب تحريم النظر إلى العورات.

(٢) رواه مسلم رقم ٢١٥٩ باب نظر الفجأة.

(٣) رواه أبو داود رقم ٢١٤٥ في النكاح والترمذي رقم ٢٧٧٧ في الأدب.

(٤) أخرجه الترمذي رقم ١٧٧٩ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتستر والتصوُّن عن الزنا، وتقديم الغضِّ لأن النظر بريد الزنا، ورائد الفساد ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحلي، والخِضَاب، والزينةُ ما تضعه المرأة من حلي، أو كحل، أو خضاب، وفيه من المبالغة في النهي عن إبداء موضعها ما لا يخفى ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عند مزاولة الأمور التي لا بدَّ منها عادة، فإن في سترها حَرَجاً بيِّناً، وقيل: المراد بالزينة: مواضُعها، على حذف المضاف، وما يعم المحاسن الخلقية، والمستثنى هو الوجه والكفان، لأنهما ليسا بعورة، والأظهر أن هذا في الصلاة، لا في النظر، فإن كل بدن الحرة عورة، لا يحل لغير الزوج والمحرم، النظر إلى شيء منها، إلا لضرورة كالمعالجة، وتحمُّل الشهادة ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ كانت النساء على عادة الجاهلية، يسدلن خمرهنَّ من خلفهنَّ، فتبدو نحورُهنَّ مكشوفةً عارية، وتظهر قلائدهنَّ من جيوبهنَّ، فأمرن بإرسال خمرهنَّ إلى جيوبهن[1]، ستراً لما يبدو منها ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي مواضع الزينة، كالعُنق، والأذن، والصدر، والمعصم، فإن هذه أماكن الزينة ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ لكثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهنَّ، وقلة توقع الفتنة من قبلهم، لما في طباع الفريقين من النفرة عن مماسة القرائِب، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ المختصات بهنَّ بالصحبةِ، والخدمة، من حرائر المؤمنات، فإن الكوافر لا يتحرجن عن وصفهن للرجال، ولأن الله تعالى قال: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ والذميَّةُ والكافرة ليست من نسائنا، ولأنها أجنبية في الدين، كتب عمر رضي الله عنه إلى

---

(١) الخُمُرُ: جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها، والجيوبُ جمع جيب، وهو ما جيب من القميص، أي قطع لإدخال الرأس، والمعنى: وليلقين مقانعهن على جيوبهن، ليسترن بذلك شعورهن، وأعناقهن عن الأجانب، وفيه دليل على أن صدر المرأة ونحرها عورة، لا يجوز للأجنبي النظر إليها.

أبي عبيدة أن يمنع نساء أهل الكتاب، أن يدخلن الحمام مع المسلمات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ أي من الإماء، فإن عبد المرأة، بمنزلة الأجنبي منها، قال سعيد بن المسيب: لا تغرنكم سورةُ النور، فإنها في الإماء دون الذكور وقيل: من الإماء، والعبيد، وهو ظاهر القرآن، روي ذلك عن أم سلمة وعائشة، وروى أنس «أن النبي ﷺ أتى إلى فاطمة بعبد، قد وهبه إيَّاها، وعلى فاطمة ثوبٌ إذا قنَّعت به رأسها لم يبلغ رجليْها، وإذا غطّت به رجليْها، لم يبلغ رأسها، فلما رأى ﷺ ما تلقى، قال: إنه ليس عليك بأسٌ، إنما هو أبوك وغلامك[1]» ﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي غير أولي الحاجة إلى النساء، وهم الشيوخ الهرمون وقيل: هم البُلْهُ الذين يتبعون الناسَ لفضل طعامهم، ولا يعرفون شيئاً من أمور النساء ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي الأطفال الصغار لعدم تمييزهم ولعدم بلوغهم حدَّ الشهوة ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ ولا يضربن بأرجلهن الأرض، فيعلم أنهن ذوات خلخال، فإن ذلك مما يورث الرجال ميلاً إليهن، ويوهم أن لهن ميلاً إليهم، وفي النهي عن إبداء صوت الحلي، بعد النهي عن إبداء عينها من المبالغة، والزجر عن إبداء مواضعها ما لا يخفى، وإذا كان سماع صوت خلخالها للأجانب حراماً، كان رفع صوتها بالكلام، أو الغناء بحيث يسمعه الأجانب حراماً بطريق الأولى، لأن صوتها أقرب إلى الفتنة من صوت خلخالها. ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله ﷺ إلى الكل، لإبراز كمال العناية بأمر التوبة، لما أنه لا يكاد يخلو أحد من المكلفين، عن نوع تفريط وتقصير في إقامة موجبات التكاليف، لا سيما إذا كان المأمور به الكفّ عن الشهوات، وفي قوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد للوجوب، وإيذانٌ بأن وصفَ الإيمان موجب للامتثال حتماً ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي تنالوا رضى الله، وتفوزوا بسعادة الدارين.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود من حديث أنس، وانظر تفسير ابن كثير ٣/٢٩٦.

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٣٢﴾.

﴿وَأَنكِحُواْ﴾ بعدما زجر اللهُ تعالى عن السفاح ومباديه، أمر بالنكاح ورغَّب فيه، فإنه مع كونه مقصوداً لبقاء النوع الإنساني، هو مزجرة عن ارتكاب الفاحشة، وأجمع السلف على أن الأمر للندب، وقيل في الآية دليل على أن تزويج الأيامى للأولياء، قلنا: الرجلُ لا يلي على الرجل الأيِّم إلاّ بإذنه من الأحرار، وكذا لا يلي على المرأة إلاّ بإذنها، لأن الأيِّم ينتظمهما ﴿ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ جمع أيِّم، وهو من لا زوج له من الرجال والنساء والأيِّمُ: العَزَبُ رجلاً كان أو امرأة، فيقال رجلٌ أيِّمٌ، وامرأة أيِّم، والمعنى: زوّجوا من لا زوج له ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ﴾ الخطاب للأولياء والسادات، واعتبار الصلاح في الأرقاء، لأن من لا صلاح له منهم، بمعزل من أن يكون خليقاً بأن يعتني مولاه بشأنه، بل حقه أن لا يستبقيه عنده، فإذا عزموا النكاح فلا بد من مساعدة الأولياء لهم، وقيل: المراد هو الصلاح للنكاح، والقيام بحقوقه ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾ أي لا يمنعنَّ فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة، فإن فضل الله يغنيه عن المال، فإنه يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب، وفيه وعدٌ منه سبحانه بالإغناء، لكن مشروط بالمشيئة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾[1] ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ غني ذو سعة، لا ينقصه إغناء الخلائق، إذ لا نفاد لنعمته، ولا غاية لقدرته ﴿عَلِيمٌ﴾ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، حسبما تقتضيه الحكمةُ، والمصلحةُ. عن عبد الله بن عَمْرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا متاعٌ، وخيرُ متاعها المرأةُ الصالحة»[2].

(١) سورة التوبة، آية: ٢٨.

(٢) الحديث أخرجه مسلم رقم ١٤٦٧.

odabashalkitab.com

﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾.

﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾ إرشاد للعاجزين عن مبادىء النكاح وأسبابها، أي ليجتهدْ في العفة وقمع الشهوة ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي أسباب النكاح ﴿حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ عدة كريمة بالتفضل عليهم بالغنى، ولطف بهم، وتقويةٌ لقلوبهم بأن فضله تعالى أولى بالصلحاء، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فَلْيتزوَّجْ، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفَرْج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»(١) ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي والذين يطلبون المكاتبة، ليتحرروا من رقِّ العبودية، والكتاب مصدر كَاتَب كالمكاتبة، أي يطلبون المكاتبة ﴿مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ عبداً كان أو أمة، وهي أن يقول المولى لمملوكه: كاتبتُك على كذا درهماً تؤديه إليَّ وتعتق، ويقول المملوك قبلتُه، أو نحو ذلك فإن أداه إليه عتق ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾ والأمر فيه للندب، لأن الكتابة عقد يتضمن الإرفاق، فلا تجب كغيرها، ويجوز حالاً ومؤجَّلاً، وعند الشافعي لا يجوز إلاَّ مؤجلاً ﴿إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ أي أمانة ورشداً، أو قدرة على أداء المال، بتحصيله من وجه حلالٍ، وصلاحاً في الدين ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ أي ببذل شيء من أموالكم، وفي حكمه حطُّ شيء من مال الكتابة، ويكفي فيه أقل ما يتمول، وعن علي حطُّ الربع، وعن ابن عباس الثلث، وهو للندب عندنا، وعند الشافعي للوجوب، وإضافة المال إلى الله تعالى، ووصفه بإيتائه للحث على الامتثال

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ٤/١٠٦ ومسلم في النكاح رقم ١٤٠٠.

بالأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1] وقيل هو أمر بإعطاء سهمهم من الصدقات، فالأمر للوجوب، وقيل: هو أمر ندب للعامة، بإعانة المكاتبين، بالتصدق عليهم، ويحل ذلك للمولى وإن كان غنياً، لتبدل العنوان حسبما ينطق به قوله ﷺ في حديث بريرة: «هو لها صدقة، ولنا هدية» ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾ أي إماءكم، وهذه العبارة في هذا المقام ﴿فتياتكم﴾ لها حسنُ موقع، لقوله تعالى ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ وهو الزنا من حيث صدوره عن النساء، لأنهن اللاتي يتوقع منهن ذلك غالباً، دون العجائز والصغار ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس لتخصيص النهي عند إرادتهن التعفف عن الزنا، لبيان شناعة عادتهم الجاهلية، حيث كانوا يكرهونهن على البغاء، وهنَّ يردن التعفف عنه، مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور، روى مسلم عن جابر قال: كان عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول يقول لجاريته: اذهبي فابغنا شيئاً، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ﴾[2] الآية، وفيه تقبيح لحالهم وبيان ما كانوا عليه من الفجور ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا تفعلوا ما أنتم عليه، من إكراههن على البغاء، لطلب المتاع السريع الزوال، الدنيء الكسب ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾ أي ومن يجبرهنَّ على الزنا، فعقوبة المُكْرَه تقع على من أكرهه، والله يغفر زلة المُكْرَه على الفعل ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لهنَّ لعدم رضاهنَّ، ولا يرد عليه أن المكرَهة غير آثمة، فلا حاجة إلى المغفرة، لأن الإكراه لا ينافي المؤاخذة بالذات، ولذا حرم على المُكْرَهِ القتلُ، وأوجب عليه القصاص.

---

(١) سورة الحديد، آية: ٧.

(٢) أخرجه مسلم في التفسير رقم ٣٠٢٩ وأبو داود رقم ٢٣١١ في الطلاق، باب تعظيم الزنى.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ أي وبالله لقد أنزلنا إليكم، في هذه السورة الكريمة، آيات مبينات لكل ما بكم من حاجة إلى بيانه، من الحدود، والآداب وسائر الأحكام ﴿ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي وأنزلنا مثلاً كائناً من أمثال الذين مضوا من قبلكم، من القصص العجيبة ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ تتعظون به، وتنزجرون عما لا ينبغي من المحرمات، وسائر ما يخل بمحاسن الآداب ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فهم المنتفعون، وإن كانت للكل.

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي الله جلَّ وعلا منوِّر الكائنات، بنوره يهتدي أهل السماوات والأرض، وهذا تمثيل، حيث مثَّل لهدايته بالنور الوضاء، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾ وكثيراً ما يُطلق النور على الهدى، والظلام على الكفر، كقوله سبحانه: ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾. قال ابن عباس في تفسير الآية: أي هادي أهل السماوات والأرض، فهم بنوره يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ أي نوره الفائض منه تعالى على الأشياء وهو نور الإيمان في قلب العبد المؤمن[1] أي صفة نوره العجيبة

---

(١) فإن قيل لمَ مثَّل سبحانه، نور معرفة الله تعالى، في قلب المؤمن، بنور المصباح، =

﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أي كصفة كوّة غير نافذة في الجدار، مثلها في الإنارة والتنوير ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سراج ضخم ثاقب ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ أي قنديل من الزجاج الصافي الأزهر ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ متلألىء، وقَّاد، شبيهٌ بالدر في صفائه وزهرته، شبَّهه بالكوكب دون الشمس والقمر لأنهما يلحقهما الخسوف والكسوف بخلاف الكواكب ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ أي يبدأ إيقاد المصباح من شجرة ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي كثيرة المنافع تنبُت في الأرض المباركة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ في إبهامها، ووصفها بالبركة، ثم الإبدال منها، تفخيمٌ لشأنها ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ كالتي على ربوة أو في صحراء واسعة، فتقع عليها الشمسُ، حالتي الطلوع والغروب ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ أي هو في الصفاء والإنارة، بحيث يضيء بنفسه، من غير مساس نار أصلاً ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ كلمة «لو» في أمثال هذه المواضع، لبيان تحقق ما يفيده الكلام ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي ذلك النور نور عظيم، كائن على نور، فهو نور متضاعف، فإن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له، وأجمع لنوره، بخلاف المكان المتسع، والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة، كذلك الزيت، روي عن ابن عمر رضي الله عنه في هذه الآية أنه قال: «المشكاةُ جوفُ الرسول، والزجاجةُ قلبه، والمصباحُ النور الذي جعله فيه، لا شرقية ولا غربية أي لا يهودية ولا نصرانية، يوقد من شجرة مباركة أي شجرة إبراهيم عليه السلام» ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ أي يهدي هداية خاصة موصلة إلى المطلوب ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته من عباده، بأن يوفقهم لفهم ما فيه من دلائل حقيته، وكونه من عند الله تعالى من الإعجاز والإخبار عن الغيب وغير ذلك من موجبات الإيمان به ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ في تضاعيف الهداية وفي باب الإرشاد، ولذلك مثَّل نوره المعبر به عن القرآن المبين، بنور المشكاة، تقريباً إلى أفهامهم، وتسهيلاً لسبيل

= دون نور الشمس؟ فالجواب لأن المقصود تمثيل النور في القلب، والقلب في الصدر، والصدرُ في البدن، فناسب التمثيل له بنور المصباح في كوة الجدار.

إدراكهم، ليعتبروا فيؤمنوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ معقولاً كان أو محسوساً، ظاهراً كان أو باطناً، والفطرة الإنسانية قد يعتريها الزيغ في الأكثر، فلا بدَّ من هاد ومرشد، ولا مرشد فوق كلام الله تعالى، فتكون منزلةُ الآيات القرآنية عند عين العقل، بمنزلة نور الشمس عند عين الباصرة، وبهذا يظهر معنى قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾[1].

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فِي بُيُوتٍ﴾ المراد بالبيوت المساجد كلها، حسبما روي عن ابن عباس، وقيل: هي المساجد التي بناها الأنبياء عليهم السلام، كالكعبة، وبيت المقدس، ومسجد المدينة، وتنكيرها للتفخيم ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ أي أمر ببنائها رفيعة لعبادة الله تعالى فيها ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ المراد باسمه تعالى ما يعمُّ طرق العبادة، أي يعبد فيها الله بذكره، وتلاوة آياته البينات، ومجالس الفقه، وحِلَق الذكر، الخ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ أي يُنزِّه ويقدّس، ويصلي فيها لله سبحانه ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ أي في الصباح والمساء وسائر الأوقات.

﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿رِجَالٞ﴾ خصَّ الرجال بالذكر، لأن النساء لسن من أهل التجارة ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ﴾ صفة للرجال مفيدة لكمال تبتلهم إلى الله تعالى، واستغراقهم فيما حكى عنهم من التسبيح ﴿تِجَٰرَةٞ﴾ أي لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة

(١) سورة التغابن، آية: ٨.

﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ أي لا يلهيهم البيع والشراء عن عبادة الله وإن كان في غاية الربح ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بالتسبيح والتحميد ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إقامتها لمواقيتها من غير تأخير ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي المال الذي فرض إخراجها للمستحقين، وإيراده ههنا لكونه قرينة للصلاة لا يفارقها، على أن محاسن أعمالها غير منحصرة فيما يقع في المساجد، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ يعني هؤلاء الرجال وإن بالغوا في ذكر الله وطاعته، فإنهم مع ذلك خائفون، وليس خوفهم مقصوراً على كونهم في المساجد ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أي تضطرب وتتغير في أنفسها من الهول، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي يفعلون ما يفعلون، من المداومة على العبادات ليجزيهم الله ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم، حسبما وعد لهم، بمقابلة حسنة واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي يتفضل عليهم بأشياء لم توعد لهم ولم تخطر ببالهم ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي وهو سبحانه يعطي عطاءً واسعاً، بلا حدّ ولا عدّ، من شاء من عباده، وفيه التنبيه على أن مناط الرزق المذكور، محضُ مشيئته تعالى، لا أعمالهم المحكية.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لما ذكر تعالى جزاء المؤمن ومآله، ذكر جزاء الكافر وخسرانه، أي وأمَّا الكافرون الجاحدون لفضل الله ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ أي فإن أعمالهم التي هي من أعمال البر، كصلة الأرحام، وسقاية الحاج، ونحو ذلك ﴿كَسَرَابِۭ﴾ وهو ما يُرى في الفَلوات، فيظن أنه ماء من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة ﴿بِقِيعَةٖ﴾ أي كائن في قاع، وهي الأرض المنبسطة المستوية ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ أي يظنه العطشان من بعيد ماءً جارياً، وهذا تكميل للتشبيه في شدة الخيبة، عند مسيس الحاجة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ أي إذا جاء العطشان ما حسبه ماءً ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ أي لم ير شيئاً، لا ماءً ولا شراباً، وإنما شاهد سراباً فعظمت حسرته ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي وجد الله له بالمرصاد فوفَّاه جزاء عمله، وهكذا إذا جاء الكفرة يوم القيامة، بأعمالهم التي كانوا يحسبونها نافعة لهم في الآخرة، لم يجدوها شيئاً، ووجدوا الله، أي حكمه وقضاءه عند المجيء، فأعطاهم حسابهم وعذابهم وافياً كاملاً، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعَاً﴾(١) وقوله: ﴿مثل الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ به الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصفٍ﴾(٢).

﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾.

﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾ كلمة «أو» للتنويع، مُثِّلت أعمالهم القبيحة، التي ليس فيها شائبة خيرية، بظلمات كائنة ﴿فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ أي عميق، منسوب

---

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٤.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ١٨.

إلى اللُّجِّ وهو معظم ماء البحر البعيد القعر ﴿يَغْشَـٰهُ﴾ أي يستره ويغطيه بالكلية ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أي يغشاه أمواج متراكمة، بعضها على بعض ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ أي فوق ذلك الموج، سحاب ظلماني، سَتَر أضواءَ النجوم، وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها، حتى كأنها بلغت السحاب ﴿ظُلُمَـٰتٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هي ظلمات ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي متكاثفة، وهذا بيان لكمال شدة الظلمات، كما أن قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ بيان لقوة النور ﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾ أي من ابتلي بها ﴿يَدَهُۥ﴾ وجعلها بمرأى منه قريبة من عينيه لينظر إليها ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ وهي أقرب شيء منه لشدة الظلمة ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ أي ومن لم يشأ الله أن يهديه لنوره، الذي هو القرآن، ولم يوفقه للإيمان به، بسبب أفعالهم وأفكارهم الشنيعة ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي فما له هداية ما من أحدٍ أصلاً، وفي كيفية هذا التشبيه وجوه: أحدها ثلاث ظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الأمواج، وظلمة السحاب، وللكافر ظلمات ثلاث: ظلمةُ الاعتقاد، وظلمةُ القول، وظلمة العمل، وثانيها شبَّه بها ظلمة قلبه، وظلمة سمعه، وظلمة بصره، فهو كالأعمى الأصمّ الأبكم، وكالبهيمة التي لا تعقل ما يفعل بها (١).

---

(١) ضرب الله سبحانه مثلين للكفرة ولأعمالهم: المثل الأولُ يقتضي بطلان أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وظنوها أعمالاً صالحة، فلم ينتفعوا بها، فشبَّه أعمالهم في ضياعها وفقدان ثمرتها، بسراب في مكان منخفض، ظنه العطشان ماءً، فقصده وأتعب نفسه في الوصول إليه، حتى إذا جاء إلى مكان السراب الذي تخيَّله، لم يجد شراباً ولا ماءً، وظهرت له الحقيقة أنه سراب، ففقد أمله في النجاة، كذلك الكافر يظن أن عمله نافعه، حتى إذا أفضى للآخرة وجده هباءً منثوراً، وإلى هذا المثل الإشارة بقوله سبحانه: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة..﴾ الآية، أما المثل الثاني فقد شبَّه تعالى أعمال الكفار بالظلمات المتكاثفة التي لا يرى معها الإنسان شيئاً، وبخاصة إذا كان في وسط البحر، وغطت ظلمات السحاب كل شيء حوله، وعلاه الموج من كل مكان، فصار الظلام حوله شبحاً مخيفاً، بحيث لا يكاد يرى يده وهي أقرب شيء إليه، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أو كظلمات في بحر لجي =

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ خوطب به النبي ﷺ، للإيذان بأنه تعالى قد أفاض عليه ﷺ أعلى مراتب النور، وبيّن له أسرار الملك والملكوت، أدقّها وأخفاها، والهمزة للتقرير، أي قد علمت علماً يقينياً بالوحي والاستدلال ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ أي ينزّهه تعالى على الدوام، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، ينزهه عن كلّ ما لا يليق بشأنه الجليل من نقص ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما فيهما من العقلاء وغيرهم، فإنَّ كلَّ موجود من الموجودات، من حيث ماهيتُه ووجوده، يدلُّ على وجود الصانع الواجب الوجود، المتصف بصفات الكمال، وقد نبه على كمال قوة الدلالة، بما يخصُّ العقلاءَ من التسبيح، الذي هو أقوى مراتب التنزيه، تنزيلاً للسانِ الحال، منزلة لسان المقال، كأنّ كلَّ شيء عاقل ناطق، ومخبر صادق، يسبّح الله تعالى، وخلق العقلاء أشد دلالةً على وجود الصانع تعالى، لأن الغرائب في خلقهم أكثر، وهي العقل، والنطق، والفهم ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ تخصيصها بالذكر، لاستقلالها بصنع بارع، حيث تسبح في جو السماء تسبح الله ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي تسبّحه تعالى، حال كونها صافات أجنحتها، فإن إعطاءه تعالى للأجرام الثقيلة، ما تتمكن به من الوقوف في الجو، والحركة كيف تشاء، حجة نيرة، وآية بينة، دالة على كمال قدرة الصانع جلَّ وعلا ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي كل من الملائكة، والإنس، والطير، قد أرشده الله وهداه لطريقته ومسلكه في عبادة ربه، والضمير يعود إلى الطير ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي عالم بما يفعلونه، لا تخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم

= يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب﴾ الآية، وإنه لتشبيه بديع في منتهى الجمال والروعة، فالكافر كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وقيل: الضمير، يعود على الله، أي قد علم الله صلاة كل واحدٍ، ممَّا في السماوات والأرض، وتسبيحَه، ولا غرابة أن تسبِّح الطير، والأشجار، والأنهار، فكلٌّ ما في الكون يسبح الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ من شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ (١) وقال بعض المتفلسفة: إذا كانت الطير عارفة بالله، كانت كالعقلاء، لكنها ليست كذلك، لأنها أشد نقصاناً من الصبي، الذي لا يعرف، وإذا ثبت أنها لا تعرف الله، استحال كونها مسبِّحة له بالنطق، فثبت أنها لا تسبِّح الله إلاَّ بلسان الحال، وللرد على هذا نقول: إنا نشاهد أن الله تعالى ألهم بعض الحيوانات، أعمالاً لطيفة، يعجز عنها العقلاء، وإذا كان كذلك فلمَ لا يجوز أن يُلهمها معرفته، ودعاءه، وتسبيحه، فتأمل في العنكبوت كيف يأتي بالحيل، في اصطياد الذباب، وفي النحل وما لها من الرياسة، وبناء البيوت، وانتقال الكركي واللقالق من أطراف العالم، والخطاف صانع جيد في اتخاذ العش، وناقر الخشب ينقر الموضع الذي يعلم أن فيه دوداً ونحو ذلك، فإلهامه تعالى لكل نوع من المخلوقات علوماً دقيقة، لا يكاد يهتدي إليها جهابذة العلماء، مما لا سبيل إلى إنكاره، فلماذا ينكر الجاحد تسبيح الطيور والأشجار؟.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي إلى الله وحده مصير الخلائق جميعاً، فيجازيهم على أعمالهم، واللفظ مع وجازته، فيه دلالة على تمام علم المبدأ، والمعاد.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ أي يسوقه إلى حيث يشاء ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾ أي بين أجزائه، بضم بعضها إلى بعض ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ أي متراكماً، والرَّكْمُ جمعك شيئاً فوق شيء، حتى تجعله مركوماً ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ أي المطر إثر تراكمه ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ من فتوقه ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي ينزل من الغمام، فإنَّ كل ما علاك سماء ﴿ مِن جِبَالٍ ﴾ أي من قِطَعٍ عظامٍ تشبه الجبال في العظم، كائنة ﴿ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ أي ينزّل من السماء من جبال، فيها بعض برد، والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت إن كانت قليلة وكان في الهواء ما يحلل ذلك البخار، فحينئذٍ ينحلُّ وينقلب هواءً، وإن كان كثيراً ولم تحللها حرارة، فبلغت الطبقة الباردة من الهواء، واجتمع هناك صار سحاباً، وإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً، وإلا نزل بَرَداً، وكلُّ ذلك مستند إلى إرادة الله تعالى، ومشيئته المبنيّة على الحِكَم، والمصالح ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ ﴾ أي بما ينزله من البرد ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ أن يصيبه به فيناله ما يناله من ضرر، في نفسه وما له ﴿ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ أن يصرفه عنه، فينجو من غائلته ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ ﴾ أي ضوء برق السحاب ﴿ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي يخطفها من فرط الإضاءة، وسرعة ورودها، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة، من حيث إنه توليد للضدِّ من الضدِّ، لأن البرق لا بدَّ أن يكون من نار، والنَّارُ ضدُّ الماء.

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ بالمعاقبة بينهما، وبنقص أحدهما وزيادة الآخر ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما فُصّل آنفاً ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ لدلالةً واضحةً على

وجود الصانع، ووحدته، وكمال قدرته ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي لمن له بصرٌ وبصيرة، وهذا من الدلائل على ربوبيته ووحدانيته.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ أي كل حيوان يدبُّ على الأرض ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ هو أحد العناصر الأربعة، أو من ماء مخصوص هو النطفة، فيكون تنزيلاً للغالب منزلة الكل، فجميع الحيوان سوى الملائكة والجن مخلوق من نطفة ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحية والديدان، وتسمية حركتها مشياً، مع كونها زحفاً، بطريق الاستعارة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس، والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالدوابِّ، والوحش ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مما ذُكر وممَّا لم يُذكَر على ما يشاء من الصور، والهيئات، والحركاتِ، والطبائع مع اتحاد العنصر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل الله ما يشاء كما يشاء، من الصور والأعضاء.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ وهو القرآن وما فيه من الدلائل البيّنات، لكل ما يليق بيانه من الأحكام الدينية، والأسرار التكوينية ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه، بتوفيقه للنظر الصحيح فيها، وإرشاده إلى التأمل في مطاويها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الإسلام، الموصل إلى الحق، وإلى الفوز بالجنة.

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ نزلت في «بِشْر» المنافق، وكان قد خاصم يهودياً في أرضٍ، وكان اليهودي يدعوه إلى رسول الله ﷺ، والمنافق يجره إلى كعب ابن الأشرف زعيم المنافقين، فيأبى أن يتحاكم إلى الرسول ﷺ ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾ أي أطعنا أمر الله ورسوله ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ ﴾ عن قبول حكمه ﴿ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي من بعدما صدر عنهم من ادعاء الإيمان ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي وما أولئك الذين يدّعون الإيمان والطاعة ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي المؤمنين حقيقة كما يعرب عنه اللام، أي من المعهودين بالإخلاص.

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي إلى حكم الله ﴿ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ لأنه ﷺ المباشر حقيقة، والحكم حكم الله سبحانه ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة، لكون الحق عليهم، وعلمهم بأنه ﷺ يحكم بالحق، وهو شرح للتولي والإعراض.

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ لا عليهم ﴿ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أي منقادين والإذعان: الإسراعُ في الطاعة والانقياد، أي يسرعون لجزمهم أنه ﷺ يحكم لهم، لأنهم في هذه الحالة على حق.

﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؟ أي كفر ونفاق ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾؟ في نبوته ﷺ مع ظهور حقيَّتها ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾؟ أي أم أنهم يخافون أن يجور رسول الله ﷺ عليهم في الحكم؟ ثم أضرب عن الكل، وحكم بأن المنشأ شيء آخر من شنائعهم حيث قال: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي بل هم ظلمة فجرة، كاملون في الظلم والعناد، ولذلك يعرضون عن حكم الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)﴾.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية بيان لحقيقة الإيمان، وصفة المؤمن، أي إنما كان الواجب عليهم، والقول الصادر عن المؤمنين الصادقين ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بينهم وبين خصومهم، ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي أن يقولوا سمعاً وطاعة، ويسارعوا إلى قبول حكمه ﷺ وهكذا شأن المؤمن ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار صدق القول ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)﴾.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ استئناف جيء به لتقرير مضمون ما قبله، أي ومن يطع أمر الله وأمر رسوله، في كل فعل وعمل، ويقبل بحكم الرسول ﷺ مع التسليم والإذعان ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ أي يخاف الله تعالى على ما مضى من ذنوبه، ويتقه فيما يستقبل ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم، لا من عداهم، وهي جامعة لأسباب الفوز والسعادة، وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية شافية، فَتُلِيَتْ له هذه الآية، لأنها جمعت أصول الإيمان، والطاعة، وأسباب السعادة!.

﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ حكاية لبعض آخر من أكاذيبهم مؤكد بالأيمان الفاجرة، أي أقسموا بالله بالغينَ أقصى مراتب اليمين في الشدة ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ ﴾ أي بالخروج إلى الغزو ﴿ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ أي ليخرجن معك للجهاد، وحيث كانت مقالتهم هذه كاذبة، أمر ﷺ بردّها ﴿ قُل ﴾ رداً عليهم ﴿ لَّا تُقْسِمُوا ﴾ أي لا تحلفوا فإن أيمانكم كاذبة، وأفعالكم تكذب أقوالكم ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي لا تقسموا على ما تدّعون من الطاعة، لأن طاعتكم طاعة نفاقية، لا إيمانية، لأنها باللسان دون القلب، وإنما عبر عنها «بمعروفة» للإيذان بأن كونها كذلك، مشهورة ومعروفة لدى كل أحد ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة، التي من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب، وما تضمرونه من النفاق والضلال.

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ كرر الأمر لإبراز كمال العناية به، فإن شأن المؤمن الاستجابة لله ورسوله وطاعتهما ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ خطابٌ للمأمورين بالطاعة، من جهته تعالى، ووارِدٌ لتأكيد الأمر بها، والحمل عليه، بالترهيب والترغيب، أي إنْ تتولوا عن الطاعة ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ ﴾ ﷺ ﴿ مَا حُمِّلَ ﴾ أي ما أمر به من التبليغ، ﴿ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ أي ما أُمرتم به من الطاعة، والتسليم، ولعلَّ التعبير بالتحميل، للإشعار بثقله، وكونه مؤنةً باقية في عهدتهم، كأنه قيل: وحيث توليتم عن ذلك، فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أي

وإن أطعتم أمره فقد اهتديتم إلى طريق النجاة والسعادة، وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله، لا وضع الإيمان في قلوب الناس.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ استئناف مبيِّنٌ لتفاصيل ما أجمل فيه من الوعد، أي وعد الله عباده المؤمنين، كل من اتصف بالإيمان، لا من آمن من طائفة المنافقين فقط ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي وعملوا في هذه الدنيا الأعمال الصالحة ابتغاء وجه الله وطلباً لرضوانه ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي ليجعلنهم خلفاء، متصرفين في الأرض، تصرف الملوك في ممالكهم ﴿ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ هم بنو إسرائيل، استخلفهم الله عزَّ وجلَّ في فلسطين، بعد إهلاك الجبابرة ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ أيْ وليجعلنَّ دينهم ثابتاً، عزيزاً مكيناً، عالياً على كل الأديان، وهو الدين الذي ارتضاه لهم بقوله: ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ بحيثُ يستمرون على العمل بأحكامه، ويرجعون إليه في كل شؤونهم، والتعبير عن ذلك بالتمكين الذي جعل الشيء مكاناً لآخر، للدلالة على كمال ثبات الدين، ورصانة أحكامه، وتشبيهه بالأرض في الثبات والقرار، مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ ﴾ أي من الأعداء ﴿ أَمْنًا ﴾ حيث كان أصحاب النبي ﷺ قبل الهجرة خائفين، ثم هاجروا إلى المدينة، وكانوا يصبحون في السلاح، ويمسون كذلك، حتى قال رجل منهم: ما يأتي يوم علينا، نأمن فيه؟ فأنزل الله هذه الآية، وأنجز وعده له، وأظهرهم على جزيرة العرب، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وصاروا إلى حال يخافهم كلُّ من عداهم، وفيه من الدلالة على صحة

النبوة، للإخبار بالغيب ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ أي يوحدونني ويخلصون لي العبادة، لا يعبدون إلهاً غيري، وهو مفيدٌ لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أي يعبدونني غير مشركين معي في العبادة أحداً ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي اتصف بالكفر، ولم يتأثر بما مرَّ من الترغيب والترهيب، فإن الإصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد، كفر مستأنف، زائدٌ على الأصل، أو كفر بعد الإيمان ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد ذلك الوعد ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ البعداء عن الحق ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي الكاملون في الفسق والطغيان، والاستخلافُ الذي وُصف، إنما كان في أيام، أبي بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم، وحصل له التمكينُ، والأمنُ، وظهورُ الدين.

قال الروافض: نحمله على الأئمة الإثني عشر، وهو باطلٌ، لأن قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ يدلُّ على أن هذا الخطاب كان مع الحاضرين في زمن النبي ﷺ وما وعدهم به من القوةِ والشوكة لم يوجد في الأئمة الاثني عشر، وقال أهل التفسير أول من كفر بهذه النعمة، الذين قتلوا عثمان رضي الله عنه فلما فعلوا ذلك غيّر الله تعالى حالهم، وأدخل عليهم الخوف، حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً متحابين.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي أدُّوا يا معشر المؤمنين الصلاة التي فرضها الله عليكم، وادفعوا زكاة أموالكم إلى الفقراء والمساكين، وأطيعوا نبيكم محمداً ﷺ في سائر ما أمركم به، لتنالوا رحمة الله.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لمَّا بيَّن حال من أطاعه ﷺ، عقَّب ذلك ببيان حال من عصاه، ومآل أمره، تكميلاً لأمر الترغيب والترهيب، والخطاب إما للرسول ﷺ، أو لكل أحد ممن يصلح له، كائناً من كان ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا تحسبنهم معجزين الله عزَّ وجلَّ، عن إدراكهم وإهلاكهم، في قطر من أقطار الأرض بما رحبت، وإن هربوا فيها كل مهرب ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ معطوف على جملة مقدرة كأنه قيل: لا تحسبن الذين كفروا معجزين ربهم في الأرض، فإنهم مدركون ومأواهم النار، وفي إيراد النار بعنوان كونها مأوى، إثر نفي قوتهم بالهرب، من الجزالة ما لا غاية وراءه، فاللهُ درُّ شأن التنزيل ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جواب لقسم مقدَّر، أي وبالله لبئس المصير والمسكن نار جهنم، والجملة جوابٌ مقرر لما قبله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ رجوع إلى بيان تتمة الأحكام السابقة، بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالأوامر والنواهي، الواردة فيها، روي أن غلاماً لأسماء بنت أبي مرثد، دخل عليها في وقت كرهته، فنزلت ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ من العبيد والجواري، وظاهر قوله تعالى: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يدخل فيه البالغون، والصغار، وعن ابن المسيّب رحمه الله قال: لا يغرنكم قوله: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ لا ينبغي للمرأة أن ينظر عبدُها إلى قرطها، وشعرها، وشيءٍ من محاسنها، وعن ابن عباس أن المراد

الصغار ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ﴾ أي الصبيان القاصرون عن درجة البلوغ، والتعبير عنه بالحُلُم، لكونه أظهر دلائله ﴿مِنكُمْ﴾ أي من الأحرار ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ أي ثلاث أوقات في اليوم والليلة، لأنه تعالى فسَّرها بالأوقات، وإنما قيل ﴿ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾ لأنه تعالى أراد مرة في كل وقت ﴿مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع، وطرح ثياب النوم، ولبس ثياب اليقظة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ التي تلبسونها في النهار، وتخلعونها لأجل القيلولة ﴿مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ وهي شدة الحر، عند انتصاف النهار، والتصريحُ بوضع الثياب في هذا الحين، لما أن التجرد عن الثياب فيه قليل، أمّا في الوقتين المذكورين، فالتجرُّدُ متحققٌ ومعروف لا يحتاج إلى التصريح ﴿وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ ضرورة أنه وقت للتجرد عن اللباس، والالتحاف باللحاف ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ﴾ أي ثلاث أوقات هي التي يبدو فيها انكشاف العورة، وقيل للسوءة عورة: لقبح النظر إليها، وكل شيء يستره الإنسان أَنفةً وحياء، عورة أُطلقت على الأوقات المذكورة مبالغة، كأنها نفس العورة ﴿لَّكُمْ﴾ أي كائنة لكم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي المماليك والصبيان ﴿جُنَاحٌ﴾ أي إثم في الدخول بغير استئذان، لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر، والإطلاع على العورات ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي بعد كل واحدة من تلك العورات، وهي الأوقات المتخلّلة بين كل اثنين منهنَّ ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بيان للعذر وتعليل له، أي لأنهم خَدَمُكم يطوفون عليكم للخدمة، ولو كُلّفوا بالاستئذان في كل مرة، لضاق الأمر عليهم، ومعنى الطواف: الدَّورانُ، أي يمضون ويجيئون عليكم لخدمتكم، ولهذا رخَّص تعالى لهم في ترك الاستئذان، وهي المخالطة الضرورية، وفيه دليل على تعليل الأحكام ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على الأحكام، يعني ينزّلها بينة واضحة الدلالة عليها، لا أنه تعالى بينها بعد أن لم تكن كذلك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بجميع المعلومات، فيعلم أحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفاعيله فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم، معاشاً ومعاداً.

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ ﴾ لما بيَّن حكم الأطفال، في ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة، عقَّب ببيان حالهم بعد البلوغ، أي إذا بلغ الأطفال الأحرار الأجانب سن الرشد ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم ﴿ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي فليسأذنوا في جميع الأوقات ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ كرره للتأكيد والمبالغة في أمر الاستئذان.

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي النساء العجائز اللاتي قعدن عن الحيض، والحمل، ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾ جمع قاعد، لأنها من الصفات المختصة بالنساء، كالحائض ﴿ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أي إذا بلغن في السنِّ، بحيث لا يرغب فيهن الرجال لكبرهنّ، وهي العجوز التي إذا رآها الرجل لم يَشْتَهِها، أما من فيها بقية جمال فهي محل الشهوة، فلا تدخل في حكم هذه الآية، وإنما خصهن الله بذلك، لأن التهمة مرتفعة عنهن ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أي الثياب الظاهرة كالجلباب ونحوه، والملحفة التي فوق الخمار، وأما الخمار فلا يجوز إزالته ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي غير مظهرات للزينة التي أمر الله بإخفائها في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ وأصل التبرج التكلف في إظهار ما يخفى ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ بترك الوضع ﴿ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ من الوضع لبعده من التهمة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ يعلم خفايا

النفوس، فيسمع ما يجري بينهن وبين الرجال ﴿عَلِيمٌ﴾ فيعلم مقاصدهن، وفيه من الترهيب والوعيد ما يكفي اللبيب.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الحرج في اللغة: الضِّيقُ، ومعناه هنا الإثم، وقد كان هؤلاء الطوائف، الأعمى، والأعرج، والمريض، يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء، حذراً من استقذارهم إياهم، وخوفاً من تأذيهم، بأفعالهم وأوضاعهم، وقيل: كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام، فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم، أو إلى بعض من سماهم الله تعالى في الآية الكريمة، فكانوا يتحرجون من الأكل معهم، ويقولون: ذهب بنا إلى بيت غيره، وكذا كانوا يتحرجون من الأكل من أموال الذين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو، وخلَّفوا هؤلاء الضعفاء في بيوتهم ودفعوا إليهم مفاتحها، وأذنوا لهم أن يأكلوا مما فيها، مخافة أن لا يكون إذنهم عن طيب نفس، فقيل لهم: ليس على الطوائف المعذورة إثم ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي عليكم وعلى ما يماثلكم من المؤمنين حرج ﴿أَن تَأْكُلُوا۟﴾ أنتم وهم معكم ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي البيوت التي فيها عيالكم، فيدخل فيها بيوت الأولاد، لأن بيتهم كبيته،

لقوله (ﷺ): «أنت ومالُكَ لأبيك» ولأنَّه سبحانه عدَّد الأقارب، ولم يذكر الأولاد، وإذا كان السبب في الرخصة هو القرابة، كان الذي هو أقرب منهم أولى ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ من البيوت التي تملكون التصرف فيها، بإذن أربابها، على الوجه الذي مرَّ بيانه، ومثله وكيل الرجل في ضيعته أو ماشيته، لا بأس عليه أن يأكل من أثر ضيعته، ويشرب من ماشيته ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي أو بيوت صديقكم وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية، فإنهم أرضى بالتبسط، وأسرُّ به من كثير من الأقرباء، ويحكى عن الحسن البصري رحمه الله أنه دخل داره، وإذا حلقة من أصدقائه، قد أخرجوا من تحت سريره، سلالاً من أطايب الأطعمة، وهم مكبُّون عليها يأكلون، فتهلَّلت أسارير وجهه سروراً، وضحك وقال: هكذا وجدناهم، يريد كبراء الأصحاب رضي الله عنهم، والصَّدِيقُ: يقع على الواحد والجمع، والصديق الصادق اشتقاقه من الصدق، لأنه أخلص الودَّ والنصح لصاحبه، وهذا فيما إذا عُلم رضاء صاحب البيت، بصريح الإذن أو بقرينة دالة عليه، وخُصّص هؤلاء بالذكر، لاعتيادهم التبسط فيما بينهم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ حكم آخر من جنس ما قبله، فقد كان الرجل منهم لا يأكل وحده، ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه، فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً، فرخص لهم في أن يأكلوا كيف شاؤوا. أشتاتاً جمع شتٍّ بمعنى مفترق، والشتات: الفرقة، أي ليس عليكم جناحٌ أن تأكلوا مجتمعين، أو متفرقين ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ من البيوت المذكورة، وهو بيان للآداب الاجتماعية ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لما بينكم وبينهم من القرابة الدينية والنسبية، وإن دخلتم بيوتاً فارغة، أو مسجداً فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي ثابتة بأمره، ومشروعة من لدنه ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ باركها الله تعالى لزيادة

الخير والثواب ودوامها ﴿طَيِّبَةً﴾ تطيبُ بها نفسُ المستمع، وصفها بالبركة، لأنها دعوة مؤمنٍ لمؤمنٍ، يرجى بها زيادة الخير، وطيب الرزق ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ﴾ تكرير لتأكيد الأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ما فيها من الأحكام الشرعية، وتعملوا بموجبها.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢)﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إنما ذكر الإيمان بالله ورسوله، مع تضمنه «المؤمنون» تقريراً لما قبله، وتمهيداً لما بعده، وإيذاناً بأن حقيقة الإيمان، الإيمان بهما معاً ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي إنما الكاملون في الإيمان، الذين آمنوا بالله ورسوله، وأطاعوهما في جميع الأحكام، وإذا كانوا معه ﷺ على أمرٍ مهم، كالحروب، وغيرها، من الأمور الداعية إلى الاجتماع من أهل الآراء والتجارب، ووصف الأمر بأنه «جامع» للمبالغة في أهمية الأمر ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي لم يتركوا مجلسه عليه السلام ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ في الذهاب فيأذن لهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا توكيد لما تقدم تفخيماً وتعظيماً لشأن الرسول ﷺ، أي إن الذين يستأذنوك يا محمد أولئك المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان، وهذا يفيد أن المستأذن مؤمن، وأن الذاهب لغير إذنه ليس كذلك ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾ أي فإذا استأذنك هؤلاء المؤمنون لبعض شؤونهم ومهامهم الضرورية ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي لبعض ما يعرض لهم من المهام ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ إذا علمتَ في ذلك حكمة ومصلحة، واستدل به على أن بعض الأحكام، مفوضة إلى رأيه ﷺ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ لأن الاستئذان وإن كان لعذر قوي، لا يخلو من نوع تقصير، لتقديم

أمر الدنيا، على أمر الآخرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ مبالغ في مغفرة خطايا العباد ﴿رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في آثار الرحمة عليهم، وينبغي أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم وعلمائهم في الدين، يظاهرونهم، ولا يتفرقون عنهم.

قيل: نزلت يوم الخندق حيث كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم، من غير استئذان من النبي عليه الصلاة والسلام.

﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ أي لا تجعلوا دعوته، وأمره إياكم لما فيه عز الدين، وصلاح الأمة ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ أي لا تقيسوا دعوته إياكم إلى شيء من الأمور، على دعوة بعضكم بعضاً في جواز الإعراض، والتساهل في الإجابة، والرجوع بغير إذن، وتكون الآية كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُول إذَا دَعَاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ..﴾[(1)] الآية، وقيل: لا تجعلوا دعاءه ﷺ ربه، كدعائكم، فإن دعاءه ﷺ مستجابٌ لامردَّ له عند الله عزَّ وجلَّ، وقيل: المعنى: لا تجعلوا نداءه كنداء بعضكم بعضاً، باسمه، ورفع الصوت، ولكن وقِّروه وعظِّموه، فقولوا: يا نبيَّ الله، يا رسول الله، يا أبا القاسم، مع خفض الصوت والتواضع، فتعظيمه تعظيمٌ لله عزَّ وجلَّ لأنه رسوله[(2)] . ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٢) الآية إنما وردت في بيان مقام الرسول ﷺ ووجوب التأدب في حضرته، وفي مخاطبته، فالغرضُ توقير النبي وإجلالُه، وليس الغرض أن دعاءه ﷺ مستجاب لا مردَّ له، فذلك أمر مقطوع به، ولكنه بعيد عن فحوى الآية، قال الفراء في معانيه ٢/٢٦٢: أي لا تدعوه بقولكم يا محمد، كما يدعو بعضكم بعضاً، ولكنْ وقِّروه =

﴿ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ وعيد لمخالفي أمره ﷺ، والتسلُّل: الخروجُ من البين بطريق المراوغة والخفية، و «قد» للتحقيق، أي يعلم الذين يخرجون من الجماعة، قليلاً قليلاً، على سبيل الخفية، لئلا يراه أحد ﴿لِوَاذًا﴾ أي ملاوذةً بأن يتستَّر بعضُهم ببعض حتى يخرج، وهكذا كان المنافقون ينصرفون عند حفر الخندق، ويثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة، فيخرجون في استتار ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي يخالفون أمره ﷺ بترك مقتضاه، ويتركون منهجه، وسنَّته وطريقته، والضمير للرسول ﷺ لأنه المقصود بالذكر ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة شديدة في الدنيا بقتل، أو زلازل، أو تسليط سلطان جائر ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الآخرة وكلمة «أو» لمنع الخلوِّ دون الجمع، وإعادة الفعل للاعتناء بالتهديد والتحذير، واستدل به على أن الأمر للإيجاب، فإن ترتب العذابين على مخالفته ﷺ يوجب الامتثال به حتماً.

> ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات بأسرها، مِلْكاً، وخلقاً، وتصرفاً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من الأحوال والأوضاع التي من جملتها الموافقة والمخالفة، والإخلاص والنفاق، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين، وإن اجتهدوا في سترها؟ ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يعلم يوم يرجع المنافقون للجزاء والعقاب ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من الأعمال السيئة التي من جملتها مخالفة الأمر، ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض

= وعظّموه، فقولوا يا نبيَّ الله، ويا رسول الله، وكذلك قال الحافظ ابن كثير ٦/٩٦ وهو الأنسب بالسياق والله أعلم.

ولا في السماء، لأن الكلَّ خلقُه وملكُه. وفي الأثر عن عائشة رضي الله عنها «لا تُنزلوا النساء الغُرَف، وعَلّموهنَّ الغزل، وسورة النور» وروي أن ابن عباس رضي الله عنه قرأ سورة النور على المنبر في الموسم، وفسَّرها على وجهٍ لو سمعتِ الرومُ به لأسلمتْ. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله تعالى على الرسول ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النور»

* * *

obeikandl.com